علاقة الإمارة الصفارية بالدولة العباسية

فى القرن الثالث الهجرى

د. عبد العزيز عبد الله السالم*

المقدمة :

يتناول هذا البحث دراسة لطبيعة العلاقات التى ربطت الإمارة الصفارية والدولة العباسية خلال القرن الثالث الهجرى .

أما عن الإمارة الصفارية فهى إحدى الدويلات التى قامت على حساب الدولة العباسية عندما تعرضت للضعف والتمزق ، وكان قيامها فى إقليم سجستان الذى شهد كثيرًا من الاضطربات السياسية بسبب كثرة الخوارج فيه ، حتى قال عنه ياقوت الحموى : " وبسجستان كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم ولا يتحاشون منه " .

وقد أدت الجهود والخدمات التى قدمها الصفاريون لولاية سجستان إلى تدعيم مكانة الإمارة الصفارية لأنها جاءت فى وقت كانت الخلافة العباسية تعانى من سيطرة الأتراك عليها إضافة إلى عجزها عن السيطرة على الثوارت التى قام بها الخوارج فى سجستان .

واستطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقدم خدمات جليلة حيث قام بمحاربة الأتراك الدرارى وأفشل جميع مخططاتهم وحال دون تحقيق أطماعهم وتمكن من نشر الإسلام فى تلك البقاع الأمر الذى جعل عددًا من ملوك المناطق المجاورة يعترفون بسلطته بل ويعقدون معه معاهدات صداقة وتحالف ، ولم تعترض

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد – جامعة الملك عبد العزيز .

الخلافة العباسية على ذلك لأن تلك الأعمال التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار جاءت لصالح الدولة العباسية التى كانت فى حاجة إلى قوة لحماية جناحها الشرقى من هجمات الترك وغيرهم من العناصر الأسيوية .

والواقع أنه يمكن اعتبار الإمارة الصفارية فى كثير من فترات حكمها إمارة عسكرية إذ فرض الصفاريون أنفسهم فى حكم ولاياتهم بقوة السلاح . ومع أنهم أنكروا عدة مرات سلطة الخليفة ، إلا أنهم وجدوا من الضرورى الحصول على تأييد الخليفة ليكسبوا سلطتهم صبغة شرعية . ومن جهة أخرى اضطر الخليفة المعتز با لله ثم المهتدى با لله ثم المعتمد على ا لله ثم المعتضد با لله إلى إقرارهم فى حكم ولاياتهم والاعتراف بسلطتهم وذلك دفعًا لشرهم وحسمًا لمخالفتهم ، وحرصًا على اتحاد وترابط دولة الإسلام .

وفى الوقت نفسه اتجه يعقوب إلى المجتمع فى " سجستان " فأخذ يصلح أحواله حتى استقر الوضع ، ثم اتجه إلى بلاد الترك المتاخمين لسجستان ودعاهم للإسلام .

ويبدو أن نشأة يعقوب فى سجستان بين الخوارج كانت من العوامل القوية التى جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، وإن كانت المصادر التاريخية لم تبين مدى تأثر يعقوب بآراء الخوارج .

والواقع إننا لا نستطيع أن نطلق على " الإمارة الصفارية " لقب دولة كما يردد بعض الباحثين لأن الدولة عبارة بجموعة كبيرة من الناس تعيش على وجه الدوام على قطعة ثابتة من الأرض ، ويقوم على تنظيم هذه الجماعة وإدارة شئونها فى أوقات السلم والحرب هيئة حاكمة وفق تنظيم سياسى معين(١) .

ومن هذا التعريف يتضح أنه لكى توجد الدولة يتعين أن تتوافر لها أركان ثلاث : شعب وإقليم ، وسلطة سياسية حاكمة ، فإذا توفر لأى مجتمع تلك الأركان الثلاثة فإن المجتمع يوصف بأنه دولة .

أما الإمارة الصفارية فإن تعريف الدولة بأركانها لا ينطبق عليها إلا فى جوانب ضيقة فهى لا تمثل شعبًا مستقرًا وإنما هى عبارة عن جموع من البشر تحيا حياة مضطربة قلقة والأسرة الحاكمة فيها اعتمدت على القوى العسكرية واتخذت منها أسلوبًا تحكم به البلاد والعباد ، ثم إنها لا تضم أرضًا ذات معالم وحدود واضحة باستثناء - سجستان - فى بعض الفترات ، وإنما حكمت عدة أقاليم ، مما أدى إلى قصر عمرها وتقلص نفوذها حتى انزوت فى جزء من سجستان .

* * *

قامت الإمارة الصفارية فى ولاية سجستان فى الوقت الذى كانت هذه الولاية تابعة لآل طاهر فى خراسان ، وكان الوضع السياسى فيها مضطربًا غير مستقر ، فضلاً عن أن سجستان فى ذلك الوقت كانت مأوى للصوص والخوارج وقطاع الطرق(٢) ، ولذا كثرت فيها الاضطربات والثورات ضد الحكم المحلى ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين عليها تضعف أمام نشاط حركة الخوارج . ولما رأى أهل سجستان أن الطاهريين عجزوا عن إقرار الأمن والنظام فى ولايتهم . قرروا تكوين فرق عسكرية متطوعة ، تكون مهمتها الأولى نشر الأمن والاستقرار فى بلادهم ، وتزعم هذه الحركة رجل من قريش يعرف باسم : صالح بن النضر الكنانى(٣) . وكان أن انضم إلى حركة المتطوعة كثير من المغامرين الذين وجدوا فيها خير وسيلة للارتقاء إلى مراكز اجتماعية وسياسية مرموقة فضلاً عن الحصول على مكاسب مادية . وكان من أبرز هؤلاء يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو . وكان يعقوب يشتغل فى إحدى الصناعات المحلية فى بلدته " قرنين " إحدى مدن سجستان ، حيث احترف العمل فى المعادن وبخاصة النحاس الأصفر ، ومن ذلك اشتق لقبه ، وكان يتقاضى عن عمله خمسة عشر درهمًا فى الشهر مما جعله يعيش شارد الذهن كثير التفكير والتأمل(٤) لأن مهنته هذه كانت لا يمكن أن تحقق له مركزًا اجتماعيًا ذا قيمة فى مجتمعه ، ولا تحقق له طموحه وآماله العريضة ، ولذا هجرها(٥) وانضم هو وأخوته إلى خاله كثير بن رفاق الذى جمع

حوله عددًا من وجوه الخوارج ، وقاد ثورة ضد السلطات المحلية المتمثلة فى عمال آل طاهر . ولكن هذه الثورة فشلت وأمكن القضاء عليها فى مهدها وإن كان آل الليث بزعامة أخيهم الأكبر يعقوب قد تمكنوا من الفرار إلى بست إحدى مدن سجستان الهامة(٦) .

وفى " بست " رأى يعقوب أن أفضل وسيلة للحصول على السلاح والخيل والمال هى قطع الطريق ، لأن الظروف التى كانت تعيشها سجستان فى تلك الفترة تتيح لمن ينجح فى مثل هذه الأعمال أن يحقق لنفسه مركزًا اجتماعيًا وسياسيًا مرموقًا ، فجمع حوله عددًا من الناس وكون منهم عصابة لقطع الطريق . ونشط هو وأصحابه فى قطع الطرق ، حتى أصبحت الطرق التى تربط كرمان بسجستان وفارس بسجستان غير مأمونة . ولما وصل إليهم نبأ قدوم قافلة تجارية كبيرة من البصرة والأهواز فى طريقها إلى أصفهان خرج إليها يعقوب ورجاله وترصدوا لها وهاجموها ، واستولوا على الخيل والسلاح ، وبهذه الطريقة حصل يعقوب على ما يحتاج إليه من المال والسلاح لاستخدامه فى نشاطاته البعيدة المدى(٧) . وذلك أن يعقوب عاد إلى سجستان هو ورفاقه ومعهم أعداد كثيرة من الخيل والسلاح فاستقبلهم صالح بن النضر الكنانى(٨) ودعاهم للاشتراك معه فى المحافظة على الأمن ، والاستقرار فى ولايتهم ، ومطاردة الخوارج وغيرهم . وكان أن أظهر يعقوب بطولات نادرة فى مطاردة الخوارج ، والقضاء على كثير من زعمائهم المتطرفين ، وبعد أن استطاعت حركة المتطوعة بزعامة الكنانى ومساعدة يعقوب الصفار أن توفر الأمن والاستقرار فى ولاية سجستان أرادت أن تتوج انتصارتها على الخوارج بالحصول على مكاسب سياسية ، فأعلن قائدها الخروج على طاعة بنى طاهر والتغلب على ولاية سجستان ، ولكن طاهر بن عبد الله استطاع أن يقضى على حركة الكنانى سنة ٢٣٧(٩) . وفى سنة ٢٤٣ هـ تزعم درهم بن الحسين حركة المتطوعة حينما عبث الخوارج بأمن واستقرار سجستان .

وكان يعقوب هو الموجه لهذه الحركة لما تمتع به من شخصية قوية ومهارات قتالية، ولما بذله من جهود كثيرة فى مطاردة الخوارج الذين رفضوا التعاون مع الحركة . وبعد أن ساد الأمن والاستقرار ولاية سجستان أعلنت الحركة التغلب عليها . ولكن أمير خراسان طاهر بن عبد الله استطاع أن يعمل الحيلة فى إبعاد درهم بن الحسين إلى بغداد، وكان ذلك حوالى سنة ٤٧ هـ(١٠) . وبذلك خلا الجو ليعقوب الصفار ، وأصبح قائدًا عامًا للحركة دون منافس . وبعد أن توفى طاهر بن عبد الله سنة ٢٤٨ هـ استطاع يعقوب أن يستقل بولاية سجستان فى الوقت الذى كان الوضع فى خراسان مضطربًا بسبب حداثة سن محمد بن طاهر (٢٤٨ هـ - ٢٥٩ هـ) الذى أسندت إليه ولاية خراسان . هذا بالإضافة إلى ضعف شخصيته وعدم مقدرته القيادية والإدارية فقرر يعقوب سنة ٢٥٣ هـ أن يغزو هران وبوشنج . وبعد معركة حربية جرت بينه وبين محمد بن أوس الأنبارى عامل محمد بن طاهر ، استطاع يعقوب ضمهما إليه ، وقبض على عدد من بنى طاهر فى بوشنج فمعظم أمره ، وهابه أمير خراسان وغيره من الحكام(١١) .

وبعد أن استقرت الأحوال الأمنية والسياسية فى ولاية سجستان بفضل الجهود التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار ، رأى أنه أحق بولاية سجستان من الطاهريين الذين بدت عليهم إمارات الضعف والعجز ، فأعلن نفسه حاكمًا على ولاية سجستان ، دون أن يستند فى ذلك إلى تقليد شرعى من الخليفة العباسى(١٢) صاحب السلطة الشرعية . وكانت الخلافة العباسية فى تلك الفترة فى ظروف لا تمكنها من إقرار الوضع فى سجستان ، فتركت ليعقوب مهمة إقرار الأمن والنظام بها .

ومما يكشف عن قيمة الجهود والخدمات التى قدمها الصفاريون لولاية سجستان أنها جاءت فى وقت كانت الحكومة العباسية عاجزة عن إقرار الأمن والنظام فى عاصمتها والمدن المجاورة لها . وقد زامن ضعف الحكومة العباسية فى

بغداد ضعف الإدارة الطاهرية فى خراسان مما جعل الخـوارج يرفعـون رايـة الثـورة والعصيان فى سجستان . وشجعت هذه الظروف راتبيـل سجسـتان(١٣) ، وغـيره من ملوك وأمراء الترك الـدرارى الذيـن كـانت تربطهـم بـالدول الإسـلامية عقـود ومعـاهدات ، لأن يعلنـوا خروجهـم وتمردهـم علـى السيادة العربيـة الإســلامية ، ويمتنعوا عن دفع الخراج(١٤) ، بل أنهم أخذوا يتهيئون لضرب الوجـود الإسـلامى فى سجستان ، واستعاده نفوذهم عليها . ولكن قيام إدارة عسكرية قوية فى ولايـة سجستان فى تلك الفترة أفشل مخططات الترك وحال دون تحقيق أطماعهم . ذلـك أن يعقوب بن الليث الصفار لما نجح فى تهدئـة الأوضـاع الداخليـة فـى سجسـتان وقضى على شوكة الخوارج فيها ، أخذ يستعد لإعداد جيـش قـوى لملاقـاة رتبيـل سجستان وغيره من ملوك وأمـراء الـترك الـدرارى ، لأن خطـر أولئـك علـى أمـن واستقرار الولاية كان أشد وأقوى من خطر الخوارج عليهـا . وقـاد يعقـوب حملـة عسكرية لدفع خطر الترك عن أراضى الدولة الإسلامية فـى سجسـتان ، وكـان أن نجح يعقوب فى حملاته العسكرية الموفقة فى قتل رتبيل سجستان وثلاثة من ملـوك الترك ، كما استطاع أن يصل إلى كابل ويفتح غزنة ، وأن ينشر الإسلام فى تلـك البقاع ، مما جعل عددًا من ملوك البلاد المجاورة يعترفون بسـلطته(١٥) ، ويعقـدون معه معاهدة سلام مثل : ملك " المولتان " " وملك " الرخج "وملك " زابلستان "، وملـك " السـند ومكـران "(١٦) . كمـا أرسـل ملـك الهنـد وفــدًا تفــاوض مــع يعقوب(١٧) على جسر " بسط " .

* * *

وقد اتسمت علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية بعدة سمات أسهمت إسهامًا كبيرًا فى صياغة تلك العلاقة وتوجيهها ومن أهمها :

١ - الشك والحذر وعدم ثقة كل منهما بالآخر .

٢ - الاصلاح الدينى والاجتماعى .

٣ - الفكر السياسى للخوارج وأثره فى توجيه حركة الصفاريين .

٤ – الطبيعة العسكرية للإمارة الصفارية وأثرها فى تكييف حركة الصفاريين .

كان لهذه المؤثرات وغيرها من العوامل المساعدة الأخرى كاختلال الأمن ، واضطراب الأحوال السياسية فى ولايات المشرق(١٨) ، وعجز الطاهريين عن إقرار الأمن والنظام فى ولاياتهم ، وضعف سلطة الخلافة العباسية ، أثر بارز فى رسم الخطوط العريضة للروابط والصلات التى حكمت علاقة الإمارة الصفارية بدولة الخلافة العباسية فكانت العلاقات بينهما تستقر حين تتفق مصالح الطرفين ولكنها لم تصل إلى درجة ثقة كل واحد منهما فى الطرف الآخر . أما حين تتعارض مصالحهما فكانت تنفصم عرى الروابط والصلات بينهما .

وبالنسبة للعامل الأول أخذ يعقوب بن الليث يوجه نشاطه بتحريض من أهل سجستان إلى بلاد الترك الدرارى المتاخمين لولاية سجستان ، لأن خطرهم على سجستان كبير(١٩) ، فقاتل ملوك تلك البلاد حتى وصل إلى غزنة وكابل ، ثم عاد يعقوب إلى سجستان وقد حمل بعض رؤوس الترك معه ، فزادت هيبته ، وغنم من بلاد الترك غنائم كثيرة(٢٠) ، وكان ذلك كله فى صالح الخلافة العباسية ولذلك لم تعترض الخلافة على أعماله . وكان يعقوب يظهر التمسك بطاعة الخليفة المستعين با لله ، فلما تولى المعتز با لله الخلافة سنة ٢٥٢هـ ، كتب إلى يعقوب بولاية سجستان(٢١) ، ولكن علاقة الدولة العباسية به لم تتوثق لأن شخصيته وأهدافه وخططه لم تتضح لم تتضح بعد للخلافة .

وفى سنة ٢٥٤ هـ أرسل يعقوب إلى الخليفة المعتز با لله يطلب ولاية كرمان ويذكر عجز الطاهريين وعدم قدرتهم على إدارتها واستيفاء خراجها وتحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . وأعلن يعقوب ولاءه وطاعته للخليفة فأجابه إلى طلبه وقلده ولاية كرمان وكان المعتز با لله يعلم أن يعقوب يظهر له طاعة ظاهرية لا حقيقة لها(٢٢) . ولكل الظروف التى كانت تعيشها الخلافة العباسية عندئذ الأوضاع التى أحاطت بولايتى فارس وكرمان دفعت الخليفة إلى تقليد

يعقوب ولاية كرمان . ولم يكن ذلك ناتجًا عن ثقة الخليفة فى يعقوب أو فى ولائه وطاعته للخلافة ، وإنما أراد يعقوب أن يتقرب إلى الخلافة لعله يزيل شكها فيه وعدم ثقتها به فبادر حينما استولى على فارس بالخطبة للخليفة العباسى والدعاء له. وحينما طلب منه على بن الحسين إبراز كتاب الخليفة إليه بولايته رد عليه يعقوب قائلاً : " فإن البلد لأمير المؤمنين ، ونحن عبيده نتصرف بأمره فى أرضه وسلطانه ، وفى طاعة الله وطاعته"(٢٣) ، ثم أرسل إلى الخليفة المعتز بالله هدية ثمينة(٢٤) ، وكتب إليه يعلن طاعته . ومع ذلك ، فإن الخليفة لم يكن مطمئنًا إلى عمل يعقوب وتصرفاته ، فحينما غادر فارس أرسل إليها عمالاً(٢٥) .

وفى سنة ٢٥٧ هـ استولى يعقوب على فارس مرة أخرى ، وأراد أن يتحدى سلطة الخلافة ، ولكن الخليفة ، العباسى الموفق بالله حرص على تسوية الموقف بين الصفاريين والخلافة فأسند إليه بعض أعمال الولايات التى كان معظمها تحت يده ، كبلخ وطخارستان والسند وسجستان ليبعده عن فارس ، ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائمًا إبعاده عن فارس ، وأنها لا تطمئن إليه ، ولا زالت تشك فى نواياه وخططه ولا تثق فى ولائه وطاعته ، اعتبر أن السبب فى ذلك هم آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وبغداد وفارس ، فأراد أن يصفى حسابه مع آل طاهر لعله يحظى بثقة الخلافة ، فاستولى على خراسان ، وقضى على نفوذ الطاهريين بها فى سنة ٢٥٩ هـ ، ولكن الخلافة ما كانت لتعدل الصفاريين بالطاهريين ، فازداد شكها فى الصفاريين وأصدرت أمرها إلى عاملها على بغداد بأن يجمع حجاج خراسان وجرجان وطبرستان والرى ويعلمهم بأن الخليفة لم يول يعقوبًا أيا من تلك الولايات ، وإنه من المخالفين الخارجين على سلطة الخلافة ولما رأى يعقوب أن الخلافة لم تغير موقفها منه وأن ثقتها فيه انهارت قرر أن يلتحم معها عسكريًا(٢٦) ، وتم ذلك فى دير العاقول ٢٦٢ هـ . وكان هذا اللقاء العسكرى ، بين يعقوب وقوات الخلافة العباسية يمثل قمة الشك وعدم ثقة كل طرف فى الآخر .

ورغم أن عمرو بن الليث الذى خلف أخاه على الإمارة كـان أكثر مرونـة وتعاونًا وتقربًا إلى الخلافة ، إلا أن الخلافة العباسية كانت تسند إليه ولاية الأعمـال وترسل التقاليد مداراه له ودفعًا لخطره ، لا ثقة فـى ولائـه وطاعتـه لبنـى العبـاس . وكانت الخلافة تتحين الفرص للقضاء على عمرو ونفوذه ، فلمـا أتيحـت الفرصـة للمعتضد با لله سنة ٢٨٧ هـ على يد السامانيين لم يتردد فى ذلك .

وقد أعلـن يعقـوب ، عـدم ثقتـه وكرهـه للعباسـيين فـى روايـة حيـث قـال يعقوب: " إن العباسيين قد ثبتوا حكمهـم علـى الحيلـة والخديعـة . ألم تشـاهد مـا عملوه مع أبى مسلم وعائلته البرامكة على الرغم من كل ما عمله هـؤلاء الرجـال بالنسبة للدولة العباسية ، فلاتدع أحد يثق بهم أبدصا ."(٢٧)

وقد ادخل الصفاريون تقليدًا جديدًا على علاقـة الأمـراء المستقلين بالخلافـة العباسية فاحتفظوا لأنفسهم بما جمعوه من خراج مناطقهم ،ولم يرسلوا منه شيئا إلى بيت المال ببغداد ، واقتصروا على إرسال الهدايا . وكـان يعقـوب أول مـن أدخـل اسمه فى الخطبة مع اسم الخليفة ، كما كان عمرو أول من نقش اسمه على الدنانير. والصفاريون هم أيضًا أول من هاجم سلطة العباسيين فى فـارس ، وحـاولوا الحـط من سلطتهم الدنيوية إلى أدنى حد(٢٨) .

أما العامل الثانى وهو جهود الصفاريين فـى الاصـلاح الدينـى والاجتمـاعى فلقد تأثر يعقوب بن الليـث الصفـار بفلسـفة حركـة المتطوعـة ، فـانضم إلى تلـك الحركة وأصبح أحد أعضائها النشـيطين ، واسـتطاع بقـوة شـخصيته(٢٩) وتأثـيره وحسن معاملته لاتباعه وأصحابه أن يتزعم الحركة(٣٠) . ثم أنـه أخـذ يتقـرب إلى أفرادها حتى استحوذ على قلوبهم فاطاعوه طاعة مطلقة · فلما قضى على كثير من زعماء الخوارج المتطرفين الذيـن رفضـوا التعـاون معـه ، وأقـر الأمـن والنظـام فـى سجستان اتجه إلى المجتمع فى سجستان فأخذ يصلح أحواله ويقضـى علـى المفاسـد التى انتشرت فيه وكـان يـأخذ بعضًـا مـن أمـوال الأغنيـاء فيوزعهـا علـى الفقـراء

والضعفاء . وأظهر الأمر بالمعروف والنهى عـن المنكـر (٣١) فـازادات محبـة النـاس لـه(٣٢) . وقـد أظهـر يعقـوب لأصحابـه وخاصـة العلمـاء منهـم أن الخليفـة ولاه سجستان وأمره بقتال الخوارج ، لئلا يظهر فى نظرهم بمظهر العاصى الخارج علـى سلطة الخلافة . وبعد أن استقر الوضع فى سجستان ثم إصلاح أحوال المجتمع فيها اتجه إلى بلاد الترك المتاخمين لسجستان وأخذ يدعوهم للإسلام ليظهـر أمـام اتباعـه وأعدائه على حد سواء بمظهر المجاهد فى سبيل الله . وبعد ذلك قصد بعض أملاك الطاهريين فى هرات وبوشنج فضمها إليه مظهرًا أن الدافع من وراء ذلك هو عجز الطاهريين عن تحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . ثم اتجه إلى الطاهريين فـى كرمـان وأملاك الدولة العباسية فى فارس متخذًا من عجز الطاهريين وفساد الإدراة وفقدان الأمن حجة لبسط نفوذه(٣٣) . وكانت الخلافة العباسية حتى نهاية عصر المهتـدى بالله (٢٥٦) لا ترى فى حركة يعقوب التى أظهرها بمظهـر الإصـلاح الاجتمـاعى والدينى خطرًا يهدد آمنها واستقرارها ، بل رأت أنها تستفيد منها فى توطيد الأمن فى فارس وكرمان . ولكن سياسة الخلافة العباسية تجاه يعقوب تغيرت حينما تقلـد المعتمد على الله ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ الذى أصدر إلى محمد بن طاهر منشـورًا بولايـة خراسان وسجستان ، وبهذا لم يعترف المعتمد بولاية يعقوب على سجستان(٣٤).

أما العامل الثالث فهو الفكر السياسى الخوارجى وأثره فى توجيه حركة

وعلى الرغم من أن يعقوب الصفار قد تعاون مع الخوارج واستفاد من حركتهم إلا أن المصادر التاريخية التى بين أيدينا لم تبين مدى تأثر يعقوب بعقيدة الخوارج ومذهبهم . ويبدو أن المصادر التاريخية التى نعتت يعقوب بأنه خارجى(٣٧) قصدت من اللفظ معناه السياسى ، ولم تقصد معناه المذهبى والفكرى . فيعقوب عاش حياة فيها قدر من الزهد والتقشف وكان لا يكتشف لأصحابه عن آرائه وأفكاره وأسراره(٣٨) . ونتيجة لأن يعقوب الصفار عاش فى بيئته سجستان التى كان للخوارخ فيها صولة وجولة ، وكانوا فيها من الكثرة والقوة ما جعلهم يتفاخرون بمذهبهم عند البيع والشراء(٣٩) ، فقد تأثر يعقوب بفكرهم السياسى ، وكان لهذا التأثر أثره فى علاقته مع دولة الخلافة العباسية ، ويتضح لنا ذلك فى ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : كان سنة ٢٥٤ هـ حينما اتجه يعقوب بجيشه إلى فارس ليستولى عليها ويضمها إلى ولايته ، فلما طلب منه على بن الحسين بن قريش والى فارس – فى عهد الخليفة المعز با لله – إن كان معه عهد من الخليفة أن يبرزه له رد عليه يعقوب بأن معه عهد من الخليفة لا يستطيع أن يبرزه إلا بعد أن يدخل البلد ، فلما قبض يعقوب على على بن الحسين ودخل شيراز أخرج سيفه قال : هذا عهدى(٤٠) .

وكان الموقف الثانى : حينما دخل يعقوب الصفار نيسابور فى شوال من عام ٢٥٩ هـ وقبض على محمد بن طاهر ، إذ أخذ علماء ووجهاء وأعيان المدينة يتناجون فيما بينهم وكل يسأل صاحبه : أمعه عهد وتقليد من الخليفة ؟ فلما علم بما يساورهم أمر جنوده بأن يطوفوا فى المدينة يدعون الناس وخاصة العلماء وأعيان نيسابور حتى يعرض عليهم منشور الخليفة فلما اجتمعوا عنده التفت

يعقوب إلى حاجبه وقال له : " احضر منشور أمير المؤمنين حتى اقرأه عليهم فوضع الحاجب أمامه سيفًا براقًا فقال يعقوب : هذا هو منشور الخليفة إن هذا السيف هو الذى أعطانى خراسان ، وبذلك فأنا والخليفة سيان فى الحجة(٤١) .

أما الموقف الثالث : فحينما انهزم يعقوب بن الليث الصفار أمام جيش الخلافة العباسية بقيادة المعتمد على الله سنة ٢٦٢ هـ حيث اتجه إلى جند يسابور وأقام هناك يعالج جراحه . وفى تلك الأثناء أراد الموفق بالله أن يستغل هزيمة يعقوب لكى يتفرغ لحرب الزنج ، فأرسل إليه رسولاً يحمل تقليدًا ليعقوب بعمل بعض الولايات البعيدة عن العراق . فلما وصل رسول الخليفة : إلى جند نيسابور سنة ٢٦٥ هـ كان يعقوب على فراش الموت وبجانبه سيفه فقال يعقوب لرسول الخليفة : قل للخليفة أننى عليل فإن مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وأن عوفيت فليس بينى وبينك إلا هذا السيف(٤٢) .

وجملة القول ، كان لبيئة سجستان التى عاش فيها آل الصفار ولتعاونهم مع الخوارج وتعاون الخوارج معهم دور كبير فى تأثر يعقوب بالفكر السياسى للخوارج ثم فى توتر العلاقة بين الإمارة الصفارية ودولة الخلافة بما جعلها تحتكم فى كثير من المواقف إلى السيف والقوة ، مثلما يفعل الخوارج حينما يصطدمون عسكريًا بالخلافة العباسة .

أما العامل الرابع فهو الطبيعة العسكرية للإمارة الصفارية : إذ توصف الإمارة الصفارية فى سجستان بأنها كانت إمارة عسكرية ، وكان يعقوب وأخوه عمرو جندين عبقريين(٤٣) يتمتعان بكثير من الصفات القيادية والعسكرية ، وكان ليعقوب منهج خاص فى تنظيم جيشه وتزويده بالعناصر الجديدة واعداده وتهيئته للقتال(٤٤) .

وكان معظم جند جيش يعقوب من أهالى سجستان ، وهـى منطقـة سـهلية سبخة رملية تقل فيها الجبال وذات مناخ حـار(٤٥) ، ممـا جعـل يعقـوب لا يحقـق مكاسب استراتيجية ثابتة فـى منطقـة الـترك الـدرارى ذات الجبـال الوعـرة والمنـاخ البارد ، لأن جيشه تعود على الهواء الدافئ وخفة الحركة وقلة المؤنـة(٤٦) . لذلـك نلاحظ أن الإمارة الصفارية اتجهت فى توسـعها إلى المنطقـة الجنوبيـة لسجسـتان ، وهى فارس وكرمان وإلى المنطقة الغربية لها وهـى خراسـان(٤٧) ، ممـا جعلهـا فـى صراع مستمر مع الخلافة العباسية . وكان لذلك أثره القوى فـى توتـر العلاقـة مـع العباسيين . وكان يعقوب وعمرو يريان دائمًا أن قوتهمـا ترجـع لأصـل عسـكرى بحت ، لا لأى اعتبارات أخرى ، وهذا يؤكد سيطرة الروح العسكرية على الإمارة الصفارية ، مما جعل علاقتها بالخلافة متذبذبة مضطربة لا تستقر على حال. وعلـى كـل حـال فـإن شـهرة يعقـوب وأخيـه عمـرو تعـود إلى شـجاعتهما ومقدرتهمـا السياسـية والعسـكرية ، لا إلى ثقافتهمـا ودعمهمـا وتشـجيعهما للحركـة العلميـة والأدبية فى سجستان . والذين كتبوا عن الإمارة الصفارية إما فرس(٤٨) ، اندفعوا وراء العاطفة فجعلوا يعقوب وأخاه بطلين قوميين بعثـا مجـد فـارس القديـم فنسـبوا إليهما أمورًا كثيرة تتعلق بالعناية بأمجاد فارس وتاريخهـا وتراثهـا وأدبهـا ، إمـا مـن طوائف أخرى تحدثت عن الصفـاريين مـن خـلال نشـاطهم السياسـى ومعـاركهم العسكرية دون أن تتعرض لما خلفوه من تـراث حضـارى ، فلـم تذكـر جانبًـا مـن نشاطهم العلمى ، أو طرفًـا مـن دورهـم فـى ازدهـار المشـرق وحضارتـه . ولعـل السبب فى اغفال المصـادر التاريخيـة للجوانـب العلميـة والأدبيـة التـى أسـهم فيهـا الصفاريون إبان إمارتهم على سحستان وغيرهـا مـن ولايـات المشـرق ، يعـود إلى توتر علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية ، والتى اتخذت طابع المواجهة الحربية بينهما حين أعلن يعقوب الحرب ضد الخليفة المعتمد على الله ، وأعلن أخوه عمرو الـذى أعقبه على الإمارة عـدة مـرات تمـرده وعصيانـه علـى الخليفتـين المعتمـد علـى الله والمعتضد بالله ، مما جعل المصادر التاريخية التى سجلت أحداث التاريخ العباسى فى

عصر نفوذ الأتراك تبرز جانبًا كبيرًا من النشاط السياسى والمعارك الحربية للصفاريين دون ذكر الجوانب الحضارية التى أسهموا فيها والتى سارت جنبًا إلى جنب مع نشاطهم السياسى(٤٩) لذلك فإن إبراز دور الصفارية كإحدى الإمارات الإسلامية التى حكمت المشرق فى العصر العباسى فى المجال الحضارى من الأمور التى تتطلب جهدًا كبيرًا ، لأن هذا الجانب ضاع بين إغفال المصادر التاريخية التى أغفلت نشاط الصفاريين الثقافى ومساهمتهم فى حضارة المشرق ، وبين حماسة واندفاع المؤلفين الإيرانيين الذين نظروا إلى الإمارة الصفارية نظرة قومية عاطفية، فقالوا إن نهضة المشرق الأدبية خاصة فى القرن الثالث الهجرى تدين لهم وخاصة فيما يتعلق بالعناية باللغة الفارسية وآدابها .

وللحقيقة والتاريخ فإن الحركة العلمية والأدبية فى ولاية " سجستان " وخاصة فى مدينتى " زرنج " و " بست " شهدت إزدهارا ونشاطًا ملحوظًا فى الفترة التى تعاقبت فيها على الإمارة الصفارية يعقوب بن الليث وأخوه عمرو ، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار الأوضاع فيها ، وللرخاء الاقتصادى الذى عاشته الولاية فى عهدهما . وقد تخرج فى بست " بست " فى تلك الفترة علماء كثيرون فى الفقه والتفسير والأدب واللغة ، منهم الخطابى أبو سليمان أحمد بن محمد البستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث(٥٠) .

وعلى الرغم مما شهدته ولاية سجستان فى عصر يعقوب وعمرو من نشاط فى الحركة العلمية والأدبية إلا أن المصادر التاريخية ، وكتب الأدب ، لم تسجل لنا صورة أو حدثًا تاريخيًا يمكن الاستفادة منه فى بيان دور آل الصفار فى دعم وتشجيع الحركة العلمية فى سجستان وخراسان ، اللهم إلا ما يذكره المسعودى عن إحسان يعقوب ، وبره بأتباعه وجنده دون تمييز ، وما يذكره أيضًا عن طريقته ومنهجه فى استقبال الوفود والرؤساء(٥١) .كذلك يذكر ابن خلكان أن عمرًا انتهج سياسة ونظمًا إدارية فى حكمة لخراسان تعد فريدة فى ذاتها(٥٢) ، والإمارة

الصفارية - كما ذكرنا - وإن كانت السمة العامة لها أنها إمارة عسكرية فى خططها ونفقاتها - ، إلا أن الباحث المتحرى للحقيقة لا يستطيع أن ينكر أن يعقوب وأخاه عمرو بذلا جهودًا أسهمت فى الازدهار الحضارى لولاية المشرق .

وكانت عناية الصفاريين بالآداب الفارسية على ما يبدو أكثر من عناية الطاهريين ، لأنه لم يكن لطاهر وبنيه دراية تامة باللغة الفارسية(٥٣) ، ويذكر باريزى : أن يعقوب لم يكن له علم باللغة العربية . وينبغى أن ندرك أن رأى باريزى وغيره من المؤلفين الفرس القائل بأن اللغة العربية لم تنتشر فى سجستان فى ذلك الوقت أمر مجاف للحقيقة ، فقد انتشرت اللغة العربية فى مدن سجستان الهامة مثل " بست " و" زرنج " وتخرج فى بست عدد من علماء اللغة العربية . ولا أدل على انتشار اللغة العربية فى زرنج قاعدة الولاية من أن خطبة الجمعة فيها كانت باللغة العربية .

والخلاصة أنه ويمكن إبراز مجهود الإمارة الصفارية ودورها فى حضارة المشرق فى عدة جوانب تشمل النقاط التالية :

(أ) إقرار الأمن والنظام فى سجستان وبذلك أتاحوا للحركة العلمية فى مدن سجستان جوا علميًا بعيدًا عن الفوضى والإضطراب .

(ب) العناية بالمشآت العمرانية وخاصة بناء المساجد وإقامة بعض المبانى للإدارات والأجهزة الحكومية فى نيسابور وإقامة بعض الأسواق فى زرنج(٥٤)

(جـ) الاهتمام بالصحةالعامة والرعاية الصحية وتشجيع الحركة الطبية فى سجستان . ويتضح ذلك من أن عمرو بن الليث أوقف جزء من دخل السوق الذى بناه فى زرنج ليصرف دخله على البيمارستانات(٥٥) فيها فأصبح لها مورد ساعدها على أداء رسالتها وعلى نشر الوعى الصحى بين الناس .

الهوامش

(١) د. محمد عبد القادر أبو فارس : النظام السياسى فى الإسلام ص١٣١

د. فتحى عبد الكريم : الدولة والسيادة فى الفقه الإسلامى ص١٥١

(٢) يراجع فى ذلك ابن منظور : لسان العرب ، وكذلك حاشية جيش الصفاريين بقلم قحطان عبد الستار الحديثى ، ص٢٣٨

(٣) سى . أى . بوزورث : جيش الصفاريين ترجمة : د. عبد الجبار ناجى ، ص١٩٦

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص ٤٣٠

(٥) الحموى : معجم البلدان جـ٤ ، ص٣٣٣

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٢

والحديثى : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٢

(٧) ف . بارتولد : تاريخ الدولة الصفارية .

ترجمة : د. منذر البكر : مقالة فى مجلة كلية الآداب جامعة البصرة – السنة الثانية .

(٨) يراجع فى ذلك : سى . أى . بوزورت : جيش الصفاريين .

ترجمة : د. عبد الجبار ناجى ص/:ط

وفيات الأعيان جـ٥ ، ص٢٩١

(٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ، ص٢٩١

ابن خلكان :وفيات الأعيان جـ٦ ، ص

(١٠) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٢

(١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٣٣٨

(١٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٢٩١

(١٣) السمعانى : الأنساب جـ٧ ، ص١٣

(١٤) الشلقانى : الرواية فيما وراء العراق ص٢٥

(١٥) بارتولد : تركستان ص٣١٩

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦، ص٤٠٤

(١٧) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٠

(١٨) ابن حوقل : صورة الأرض ص٢٧٠

(١٩) النرشخى: تاريخ بخارى ص١٠٨

(٢٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٣

(٢١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ٣ ، ص٢٩٤

(٢٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ١١ ، ص١٥٩

(٢٣) ابن خلكان : جـ٦ ، ص٤٠٨

(٢٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٢٤١

(٢٥) باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ص١٤٨

(٢٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٣٦٣

(٢٧) سى . ى . بوزورت : جيش الصفاريين ص١٩٠

(٢٨) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص٢٠٢

(٢٩) ابن الأثير : الكامل جـ٥ ، ص٣٣٨

(٣٠) نفس المرجع .

(٣١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٣

(٣٢) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٧٠

(٣٣) ابن الأثير : جـ٥ ،ص٢٤٠

(٣٤) د. إبراهيم باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ص١٤٦

(٣٥) د. فاروق عمر : الخلافة العباسية ص٢٢٣

(٣٦) سى . أى بوزورث : جيش الصفاريين ص٢٠٢

(٣٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٢

(٣٨) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٣

(٣٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٣ ، ص١٩٠

(٤٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٧

(٤١) باريزى : يعقوب بن الليث الصفار جـ٦ ، ص٤٠٧

د. فاروق عمر : الخلافة العباسية ص٢٢٢

(٤٢) باريزى : يعقوب بن الليث ص١٦٣

(٤٣) سى . أى بوزورث : جيش الصفاريين ص١٨٩

(٤٤) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٥

(٤٥) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٥

(٤٦) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٠

(٤٧) ابن طيفور : تاريخ بغداد ص١٧

(٤٨) يمثل هولاء صاحب تاريخ سيستان ، ومن الباحثين المحدثين :

د. إبراهيم باستانى باريزى : أستاذ التاريخ بجامعة طهران فى كتابه : يعقوب بن الليث الصفار .

ود. رضا زاده شفق : أستاذ الأدب الفارسى فى جامعة طهران فى كتابه : تاريخ الأدب الفارسى .

(٤٩) يمثل هولاء الطبرى فى كتابه : تاريخ الأمم والملوك ، والمسعودى فى كتابه: مروج الذهب ، وابن الأثير فى كتابه : الكامل ، وابن خلكان فى كتابه : وفيات الأعيان . قد تميز المسعودى ، وابن خلكان بالإشارة إلى طرف من نظم الصفاريين الإدارية والمالية والعسكرية

(٥٠) الحموى : معجم البلدان جـ ١ ، ص٤١٥

(٥١) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٤

(٥٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ٤٢١

(٥٣) حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى جـ١ ، ص١١٧

(٥٤) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٠

(٥٥) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٠

المصادر والمراجع

المصـــــادر :

ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد . ت٦٣ هـ .

- الكامل فى التاريخ .

دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

الحموى : أبو عبد ا لله ياقوت : ت ٦٢٦ هـ .

- معجم البلدان .

بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .

ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على . ت ٣٦٧هـ .

- صورة الأرض

منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون . ت ٨٠٨هـ .

- تاريخ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٦٦م .
- مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد . ت٦٨١هـ

- وفيات الأعيان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

السمعانى : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور . ت ٥٦٢هـ .

- كتاب الأنساب (لندن ١٩١٢) .

الاصطخرى : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى - ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

- المسالك والممالك .

تحقيق : محمد عبد العال الحسينى ، دار القلم ١٣٨١ هـ .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير . ت٣١٠ هـ
- تاريخ الأمم والملوك .
ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر الكاتب . ت٢٨٠ هـ .
بغداد . طبع سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٣٦٨ م.
القزوينى : زكريا محمد . ت٦٨٢ هـ .
- آثار البلاد وأخبار العباد .
دار صادر بيروت .
المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين / ت ٣٤٥هـ
- مروج الذهب ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد . الطبعة الرابعة ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٥ هـ .
المقدسى : شمس الدين أبو عبد ا لله محمد بن أحمد . ت٣٨٨ هـ .
- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبع فى مطبعة بريل عام ١٩٠٩ م .
ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . ت٧١١ هـ .
- لسان العرب .
الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .
اليعقوبى : أحمد بن يعقوب ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٣٧٩ هـ .

المراجـــــع :

د. حامد عبد القادر :
- قصة الأدب الفارسى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة الطبعة الأولى ١٩٥١ م
د. عبد الحميد الشلقانى :
- الرواية فيما وراء العراق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥
عبد العزيز الدورى :
- دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، الطبعة الأولى، مطبعة السريان، بغداد ١٩٤٥.

د. عبد الفتاح السرنجاوى :

- النزعات الاستقلالية والخلافة العباسية ، الطبعة الرابعة : نشر دار الكتب الأهلية بمصر ١٣٦٣ هـ/١٩٤٥ م .

د. فاروق عمر :

- الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٧٧ م .

د. فؤاد محمد النادى :

- نظرية الدولة فى الفقه السياسى الإسلامى ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ .

الكتب المترجمة إلى العربية :

- **باريزى** : د. إبراهيم باستانى

يعقوب بن الليث الصفار

ترجمه من الفارسية : د. محمد فتحى يوسف الريس

دار الرائد العربى .

- **بارتولد فاسيلى** : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، ترجمة د. صلاح الدين عثمان هاشم .

منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون الكويت ١٤٠١ هـ .

- **بوزورث . سى . أى** : جيش الصفلريين ، لندن ، ١٩٧٧ .

- **د. رضا شفق** : تاريخ الأدب الفارسى .

ترجمه من الفارسية : محمد موسى هنداوى

دار الفكر العربى ١٩٤٧

- **النرشخى** : أبوبكر محمد بن جعفر . ت ٣٨٤ هـ تاريخ بخارى .

ترجمة : د. أمين عبد المجيد البدوى ، دار المعارف المعارف بمصر .